

مُهِمَّاتٌ تربويَّة

رمضان ١٤٤٦ من الهجرة النبوية

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثالث عشر يوم الخميس 13 رمضان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نبدأ مستعينين بالله راغبين أن نناقش مهمة من المهمات التربوية التي تكون سببًا في تحقيق العافية، هذه العافية التي هي من أهم مهمات الإنسان في حياته، هذه العافية يرزقها الله -عزَّ وجلَّ- من شاء من عباده في دينه ودنياه، على أن يأخذ الإنسان أسباب العافية، فإن لكل شيء سببًا، ومن ذلك العافية.

ففي هذه المهمات التربوية يشغلنا موضوع: "العافية في ديننا"، فنتكلم -بإذن الله- في كل لقاء عن مهمة يجب على المربين لأنفسهم ولمن تحت أيديهم أن يهتموا بها لأجل تحقيق العافية لنفسهم ولمن تحت أيديهم.

اليوم -بإذن الله- سيكون موضوعنا من **سورة إبراهيم**.

هذه السورة العظيمة التي حدثتنا عن الصراع الذي له طرفان: طرف الحق وطرف الباطل.

وكيف أن الحق غاية في الوضوح، غاية في البيان،

وكيف أن أهل الباطل -لترويج باطلهم ولجعله ذا شأن- يستعملون القوة.

ونحن ناقشنا هذا المفهوم في لقائنا أمس ورأينا كيف أن الشيطان وجماعته المتعاونين معه من شياطين الإنس والجن، يجعلون الميزان: القوة، في مقابل أن ميزان الحق -كما سيتبين اليوم-: الفطرة السوية. وكم من أناس تشتت جهودهم لعدم ظهور هذا الأمر في نفوسهم، لذلك كانت هذه **مهمة تربوية عظيمة** لا بد من استفراغ الجهود من أجل بيانها وإيضاحها، وستكون سورة إبراهيم موضحة لهذا الأمر.

من أول السورة تسمع (الر)، وهذا يجعل سورة إبراهيم من ضمن السور التي ابتدأت بـــ(ألف، لام، راء)، التي بدايتها سورة يونس، التي مررنا عليها، ونهايتها سورة الحجر التي هي بعد سورة إبراهيم.

الكلام هنا عن الصراع بين الطرفين، (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)، وهذا ما يكون إلا (بإذن ربهم)، تخرجهم إلى (صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)، وبهذا يخرجون من الذل والذم إلى العزة والحمد، وهذا ما يميز

الصراط، هذا ما يميز الحق، أنه بنفسه يسبب للإنسان هذا الوصف؛ يسبب له العزة ويسبب له الحمد.

لذلك يشير ربّ العالمين أن هذا الصراط صراطه -سبحانه وتعالى- وهو له ما في السماوات وما في الأرض، فمن المؤكد أن من سيسير في هذا الصراط سيكون له العزة؛ لأن هذا الصراط صراط الله العزيز، وسيكون له الحمد؛ لأن هذا الصراط هو صراط الله الحميد، في مقابل ذلك يخبرنا -عزَّ وجلَّ-: (وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)، هذه هي أزمتهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، يقدمون الحياة الدنيا على الآخرة، لا يفكرون في الآخرة، يريدون الحياة الدنيا، (وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) كل هذا صفة لهم؛ لذلك يقول الله -عزَّ وجلَّ-: (أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)، تصور هذا الصراع.

(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ) غايته إخراج (النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)، غايته تحقيق إنسانية الإنسان بحيث يصبح هذا الإنسان الذي كرمه الله محافظًا على كرامته، بالصفتين؛ بالعزة وبالتصرفات المحمودة، وهذا لا يكون إلا من طريق الله.

يقابل هذا الفريق الثاني الذي لا يريد أن يسمع عن الآخرة، ولا يريد أن يرشده أحد. فهؤلاء (يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)، وهؤلاء (يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)، وهؤلاء (يَبْغُونَهَا عِوَجًا)، لذلك حين تكلمهم عن الآخرة ينكرونها.

هؤلاء يريدون أن يفجروا أمامهم؛ لذلك يسألوا (أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ)[1]، الله أرسل الرسل كلهم لهذه الغاية، وهذه الغاية التي يأتي بها الرسل، كل إنسان يحمل في داخله ما يجعله قابلًا لرسالة الرسل، وهذه هي **المهمة التربوية؛**

أن نفهم الفطرة السوية التي خُلِقت عليها الإنسانية

هذا هو الأمر الأساس: أن الله خلق الإنسان بفطرة سوية وجاءت الرسل بالحق الذي تقبله الفطرة السوية، ومن ثم هذا هو الميزان الدقيق العميق الذي يحتاج إلى تأمّل وفهم.

سنناقش هذه الآيات من سورة إبراهيم وسيحصل تنقّل بين الآية الرئيسية التي ستكون هي المهمة وبين ما قبلها وما بعدها، سنبدأ بالآية السابعة في السياق إلى الآية السابعة عشر، ثم ستظهر الآية التي هي المهمة التربوية التي علينا العناية بها:

[1]() القيامة: 6.

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن
قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا
اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا
إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ
(9) ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ
قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (10) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ
لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ
(12) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ
لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13)
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ
وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِّن
وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ

يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)

هذه الآيات التي هي موضوع الشاهد، وإن كان السياق طويلًا، لكن موضوعنا واضح من خلال هذا السياق، أن هناك صراعًا بين الحق والباطل. الحق يمثله الرسل من عند الله، والباطل يمثله هؤلاء المتسلطين على الناس الذين لهم شهوات ورغبات يريدون تنفيذها، وهم مستفيدون من هذا، وهؤلاء يمكن أن يكونوا أقوياء، ويمكن أن يكونوا ضعفاء، لكنهم تكالبوا مع بعضهم واستفادوا من بعض؛ لذلك في النار -والعياذ بالله كما في هذه السورة- يحصل أن يتلاوم هؤلاء، يحصل بينهم صراع حتى في النار، وفي هذه السورة يخطب فيهم إبليس، لأن بعد الآيات التي سمعناها يأتي خبر عن يوم القيامة وأنهم (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (21) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ)، نلاحظ السلطان، السلطة، هؤلاء يتسلطون على أهل الحق، يتسلطون على الناس، ويظنون أن

هذا التسلط سيذهب الحق، ويشككون، يقولون كما أخبر -سبحانه وتعالى-: "إن هذا أمر سائر في الأمم!"، وكأن رب العالمين يرينا الآن مجموعة الأمم في قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) من هؤلاء (قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۚ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ) كل هؤلاء تصرفوا بنفس الطريقة، كلهم (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ) فما كان منهم إلا أن (رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ) هذه الجملة فيها دلالات كثيرة ومعاني قد ذكرها المفسرون، (رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ): "فعضوها غيظًا وضجرًا مما جاءت به الرسل، أو وضعوها على أفواههم ضحكًا واستهزاء، أو وضعوها على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن يكفوا ويسكتوا، أو أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل أن اسكتوا".

فالمقصد أنهم تصرفوا هذا التصرف الذي يدل على امتناعهم عن السماع، لا يريدون أن يسمعوا، (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ)، بالأشياء البينة الواضحة (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ)، وقالوا للرسل: (إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ) نحن لا نصدق ما أتيتم به، فجمعوا بين الفعل والقول، وأتوا بهذه الكلمة العظيمة، قالوا: (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ)، من ماذا؟ من هذا الذي تدعوننا إليه، يصفون شكهم وأنه شك مريب، وهذه

الصفة مؤكدة لهذا الشك في نفوسهم، يشكون في صحة ما يدعو إليه الرسل، وأن هذا الذي أتى به الرسل لا يوجد دليل على صحته، وأكدوا أن هذا الشك أوقعهم في الريب، وهذا افتراء على الله، افتراء على الرسل، كذبوا في ذلك وظلموا، فما كان من الرسل إلا أن قالت لهم قولتها العظيمة: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ)، سبحان الله! أفي الله شك؟ الله أظهر الأشياء وجلاها، وكيف تشكون في الله وهو فاطر السماوات والأرض؟! الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده.

وهنا نأتي إلى **المهمة التربوية** التي يجب أن نعمل عليها وهي من أسباب عافية الإنسان: إنها الفطرة السوية التي لا تشك أبدًا في أن هذا الكون له من خالق، وأن كل شيء حولنا يدل على ذلك.

رسلهم تقول: "وهل تشكّون في الله؟! وأنتم تقرّون بفطرتكم السوية بمسلَّمات ومستحسنات ومستقبحات خُلقتم عليها، ولم تكونوا عقلاء تُخاطبوا إلا بسبب وجود هذه المسلمات وهذه المستحسنات وهذه المستقبحات. فالله خلق الناس وخلق لهم نفوسهم وجعل هذا الأمر موجودًا في نفوسهم، مستقرًا، وبهذا أصبحوا عقلاء".

الفطرة السوية في أحسن ما يقال عنها لفهمها أنها: مجموعة من المسلمات والمستحسنات والمستقبحات تجعل الإنسان عاقلًا قابلًا للخطاب.

وهذه المسلمات والمستحسنات والمستقبحات تكون في نفس الإنسان وتعمل عملها، وتؤثر عليه بدون أن يلقنه أحد أو يعلمه، فهو يتعامل معها من أن يخرج للدنيا.

وهذا الأمر واسع عظيم يحتاج إلى كلام كثير في ضرب الأمثلة وفي بيانها.

ومن فهم الفطرة ولاحظ الواقع، استطاع أن يفسّر تصرفات كثيرة عند الخلق أنها خرجت من نابع فطري. وهذه منّة الله -عزَّ وجلَّ- على الخلق، فقد خلقهم في أحسن تقويم.

وهذه الكلمة القرآنية العظيمة (أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) حين تعود إليها تعرف أن معناها أن الله -عزَّ وجلَّ- قد خلق صورة الإنسان الخارجية وصورته الداخلية، خَلقه وخُلُقه في أحسن تقويم. وهذا من أعظم منن الله -عزَّ وجلَّ- لذلك حين تقرأ سورة التين وترى إقسامات رب العالمين بالتين والزيتون، إلى أن تصل إلى قوله: (وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) تجد المقسم عليه: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ).

هذه الإقسامات -كما يشير بعض المفسرين- أنها إقسامات بأماكن الأنبياء أن هذه هي أماكنهم التي أُرسلوا فيها، والله يقسم بهذه الأماكن وبهذه المقسمات، كأن التين يشير إلى دمشق والزيتون يشير إلى بيت المقدس، يعني منابت التين ومنابت الزيتون، وأن التين والزيتون إشارة لعيسى -عليه السلام- وطور سينين لموسى -عليه السلام- والبلد الأمين لمحمد -صلَّى الله عليه وسلَّم-. وهناك من أشار أيضًا إلى إبراهيم -عليه السلام-.

هذه الإشارات، القسم بـ (التِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) جواب القسم: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) ما هو أحسن تقويم؟

هذا التقويم شامل لخلق الإنسان حِسًّا -شكلًا- ومعنى -صورة خارجية- وإنسانية من الداخل، فخَلق الإنسان وخُلُقه جاء في أحسن تقويم؛ لذلك يأتي بعدها (رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)، هذا نفس معنى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) النفس البشرية، التي هي مناط التكليف، الجانب الذي كان به الإنسان إنسانًا، هذا الجانب بالذات كان خلقه في أحسن تقويم، وبذلك نال الإنسان أعلى درجات التكريم، (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا

بَنِي آدَمَ) وتكريمهم كان بأن خلق فيهم هذه الفطرة السوية القادرة على تمييز الخير من الشر، المستحسنات والمستقبحات، وقادرة على تمييز الحق من الباطل، وهذه هي المسلمات. تصور هذه المنّة الإلهية على الإنسان، أنه أتى ومعه ما يعينه على التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر.

بأيسر طريقة يمكن أن نقول: ألا ترى أن الصغير الذي فهم الخطاب ويردّ الجواب إذا طرق طارقًا إلا ويقول: "من؟" متأكد من أنه ما دام هناك طرق إذًا هناك طارق، ما دام هناك فعل لا بد أن هناك فاعل. تصور هذا الأمر، تصوره في قدرة الإنسان، وفي تمكين الله له، وهذا أمثلته تطول، لكن بهذا نستطيع أن نميز الأشياء حولنا؛ لذلك لا يمكن أن يكون في الله شك؛ لأن الإنسان يرى من حوله أفعالًا لا بد لها من فاعل.

ثم إن الإنسان بفطرته حين ينظر إلى الفعل، يعرف فاعله من خلال صفات الفعل، حين ينظر للفعل يجد في الفعل صفات تدله على الفاعل.

حتى هذا الأمر مستخدم في مصالح الإنسان، لو صارت جريمة في مكان، فإنهم يتتبعون صفة الجريمة، التي هي صفة الفعل، ليعرفوا من هو المجرم، يتتبعون طريقة السرقة ليعرفوا من السارق، هذا أمر مسلَّم به، كل الناس يفهمون هذا: أن صفة الفعل تدل على صفة الفاعل.

الناس اليوم يرون أفعالًا عظيمة حولهم كيف لا تخبرهم بالفاعل وصفاته! لاحظ الآية (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الناس اليوم حتى وإن كانوا يصنعون صناعات فإنهم يستفيدون -ولا بد- مما هو موجود حولهم من ماء، من تربة، من معدن، حتى لو من هواء، يستفيدون من شيء مادته موجودة، حتى لو شكلوه شكلًا جديدًا، وحتى في الأشكال، واعتبر بالطير والطائرات، فإنهم حتى في أشكالهم ينتفعون من شيء هو موجود.

لكن تصور أن الله فاطر السماوات والأرض، وهذا معنى دقيق، بمعنى أنه -سبحانه وتعالى- أوجد السماوات والأرض على غير مثال سابق، وأوجد ما فيهما على غير مثال سابق، وأوجد مادة السماوات والأرض وما فيهما من العدم، أما الخلق فإنهم يأخذون الموجود ويشكلونه ويصورونه

ويستفيدون حتى في الصور من شيء موجود، لكن ربنا فاطر السماوات والأرض -سبحانه وتعالى- الذي أوجد السماوات والأرض على غير مثال سابق، وأوجد مادة السماوات والأرض من غير مثال سابق، فهو -سبحانه وتعالى- الذي خلق الطين وخلق الإنسان من الطين، وهو -سبحانه وتعالى- الذي خلق الحَبَّ وفلق من الحَبِّ الزرع (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ)!

تصور أن الإنسان بفطرته بدون أن يلقّنه ملقّن يعرف أنه ما دام هناك فعل فلا بد أن يكون هناك فعل، وأن صفة الفعل تدل على صفة الفاعل، ولا يتصور الإنسان أبدًا أن يكون هناك فعل وفاعل وأمور مرتبة على ذلك ولا يكون وراؤها علة أو سبب، لا يقبل الإنسان.

لذلك تجد أناسًا دخلهم التعالم فيأتون إلى مكان هندسي، أو مسجد أو شارع ولا يفهمون لماذا وضعت هذه الإشارة هنا، أو لماذا وضعت هذه الزاوية هنا في المسجد، فمباشرة ما يكون منهم إلا أن يقولوا: "ما الفائدة من مثل هذا؟!" وهذا دليل على أن الإنسان لا يتصور أبدًا أن هناك شيء لا تكون له فائدة، شيء لا تكون حكمة، لا بد أن يكون لكل شيء غاية

وحكمة. حتى أن الإنسان حين يعرف -مثلًا- غاية الأهلّة على المآذن، غاية جعل كذا في الشوارع، فيفرح أنه عرف الغاية ويجد أن عنده شيء يتكلم به، هذه طبيعة الإنسان.

تصور أننا ناقشنا ثلاثة أمور فقط:

- أن الإنسان في فطرته ما دام رأى مفعولًا؛ رأى جبالًا، رأى أشجارًا، رأى أرضًا، رأى سماء، لا بد أن يكون هناك فاعل، يحب أن يعرف الفاعل ويهمه، وهذا من طبيعتنا، فينظر في الأشياء فيعرف الفاعل؛ لأنه يفهم بفطرته، بعقله.
- والفطرة ستقابل العقل، بفطرته يعلم أن صفة الفعل تدل على الفاعل، ويعرف أنه لا بد أن تكون هناك غاية لهذه الأشياء، لا يقبل الإنسان بفطرته إلا أن تكون هناك غاية.

نكمل مع هذا الإنسان ونرى كيف فطرته تمنعه من الشك:

- حين ينظر إلى صفات الفعل ويعرف من خلالها الفاعل، من المؤكد أنه يعرف من خلالها الفاعل.

لأنه يرى جبالًا عظيمة فيعرف أن خالقها عظيم، يتأمل أكثر يرى أن في الأفعال رحمة به، يعرف عن الفاعل أن له

الرحمة، ثم يرى أشياء عظيمة وكثيرة ومتنوعة ومختلفة، تشترك وتختلف، فيعرف أن الفاعل على كل شيء قدير، يراها كوحدة واحدة متناسقة، منتظمة، الليل لا يسبق النهار، الشمس لا تسبق القمر، إلى آخره، فيفهم أن هذا نظام لا بد أن يكون واحد الذي يفعله؛ لأن رب العالمين يفهمنا، أنت في الدنيا تجرب أن تجعل الإدارة لشخصين، تفسد الأمور مباشرة، هذا الشيء الذي تدركه في الدنيا طريق لكي تعرف رب العالمين.

ثم يفكر في نفسه، وانظر دور المستحسنات، هذا الفاعل العظيم أين سيكون مكانه؟ العلو أو السفول -تعالى الله عن السفول- إنما هو في العلو؛ لأن في الفطرة المستحسن العلو، ولاحظ هذه المسألة الفطرية؛ كيف تقول في الركوع: "سبحان ربي العظيم"، وفي السجود تقول: "سبحان ربي الأعلى"، وهي في الأصل مسألة فطرية في نفسك؛ لأنك لو نظرت ترى عظمة الله، ولو تأملت لا بد أن يكون الفاعل لهذه الأشياء في العلو؛ لأن العظمة لا يناسبها إلا العلو، هذا في فطرتك دون أن يلقنك أحد (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

بل سنرى من خلال النص أن حتى الأفعال التي تصدر من الإنسان الفطرة تدفع لها، بفطرتك حين ترى أفعال الله وتعرف الحقيقة أن المنّة لله وتعرف أنه فاطر السماوات والأرض لأنك تبقى في تسلسل، تقول: "أنا ألبس القطن، القطن من الزراعة"، من أين أتوا بهذا القطن أصلا قبل أن يصنعوه؟ لا بد أن هذه المادة من أصلها فُطِرت، هناك شيء خُلق، وُجد ثم استفدنا منه هذه الفائدة، فأنت بعقلك الذي يقابل الفطرة السوية ستصل إلى أن كل شيء يعود إليه، وترى تدبيره، وترى أن الأمور تسير بصورة عجيبة، كلها بحكمة، هذا الذي يكون حقيقة يبحث عن الحق.

لذلك نعيد ونكرر هؤلاء الأنبياء والرسل الذين أتوا بالبينات يقولون لهم: (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) سبحان الله!

نشير في هذه العجالة أن حتى أفعال العبد التي تنتج من وصول الحقيقة إليه، الفطرة تدعو إليها.

تصور في هذا السياق الذي نحن فيه ربنا يقول: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) تصور هذا المعنى كيف تدعو الفطرة السوية إليه، وهذا من

المستحسنات الفطرية، فكل البشرية تعرف وتستحسن أن يُشكر المنعم، وتستقبح أن يُنكر فضل المنعم؛ ولذلك في لغات الأرض كلها كلمة الشكر موجودة، رغم أنك قد تجد في لغات الأرض فقر في كثير من الكلمات للتعبير عن معانٍ نفسية، لكن الشكر موجود في كل اللغات؛ لأن من الفطرة أن من أحسن إليك تشكره، هذا مستحسن فطري، والنفوس كلها تستقبح إنكار النعمة، إنكار الإحسان.

تصور هذا الأمر الفطري ربنا خلقنا عليه ويطالبنا به (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) هذا أمر في الأصل فطري، (تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ) بمعنى أعلم ووعد، أعلمكم بهذا، هو أصلًا فطر وأعلمكم ووعدكم (لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)، فتصور هذا الأمر (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ) ومن أين يأتيكم الشك، والعياذ بالله.

ثم حين نقرأ في الآيات التالية، لما قالت لهم رسلهم: (إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وهم طالبوهم بآيات، فقالوا لهم: (مَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)، سنأتي عند التوكل ونرى كيف أن هذا الأمر حاجة فطرية.

الإنسان بفطرته يشعر بفقره، ويبحث دائمًا عن الكامل ليعتمد عليه، يتوكل عليه، ويضع عند بابه كل حاجاته؛ لذلك انظر ماذا يقولون: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ) أي شيء يمنعنا من التوكل على الله (وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا) أننا رأينا وشعرنا بهذه الحقائق وعرفناها وعرفنا كمال رب العالمين فما الذي يمنعنا من التوكل عليه.

الناس يمرون بأزمتين أو آفتين كما ذكر ابن القيم: "إما أنه لا يهتدي أو أنه لا يتوكل". إذا اهتدى لكمال الله وجلال الله ولعظمة الله، توكل على الله، فعاش في الدنيا وهو مرتاح، عاش في الدنيا وهو يعرف أن رزقه لا يأخذه منه أحد وأن وظيفته في العبادة والطاعة لا يقوم بها أحد.

فهذه الآية دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان، وأن الإنسان إذا عرف بفطرته رب العالمين وكماله وأنه القوي وأنه العظيم، بفطرته رأى كل شيء حوله، رأى الله -عزَّ وجلَّ- يسوق الرزق لهؤلاء، ورأى أن حتى الطير تجد ما تأكله، وأن فتات الخبز تسقط منك فتكون رزقًا لهؤلاء، سبحان ربنا العظيم! بذلك يتوكل الإنسان على ربه ويعلم كفاية الله.

أشرنا إلى عملين: وهي الشكر والتوكل، وظيفتان يقوم العبد بهما، الفطرة تدل عليهما، الفطرة تعرفك في الأصل برب العالمين، فإذا جاءت الرسل تقول لك: "ربنا كذا وكذا"، مباشرة تصدق لأنه يوجد في داخلك ما يقول إنه

- لا بد أن يكون خالق هذه الأرض الواسعة واسع.
- لا بد أن يكون مُخرج هذه الزروع والثمرات عليم، حكيم، على كل شيء قدير، رزاق.

فطرتك تقول لك هذا، ثم تأتي الرسل تقول لك هذا الأمر، مباشرة تصدقها، مباشرة تعرف أنها على الحق. ثم الرسل تقول لك: "اشكر ولا تكفر، وتوكل"، فطرتك تقول: "نعم، الذي أعطاني وسقاني وآواني وكفاني كيف لا أشكره؟ والذي على كل شيء قدير وبكل شيء عليم كيف لا أتوكل عليه؟" بهذا نصل إلى هذه النتيجة المهمة:

أن ما جاءت به الرسل الفطرة تدعو إليه، الفطرة تدل عليه، فما أن يبقى الإنسان على فطرته السوية وتأتي الخير من الرسل إلا تكون النتيجة القبول، لكن العناد!

لذلك لو تأملنا مسألة الشكر فقط، ورأينا كيف أن الشكر أمر طبيعي وكل الناس يتعاملون معه على أساس أن من

أحسن إلي، أنا أشكره، لو فقط هذه جردناها؛ سنصل في نهاية الأمر إلى أنه من الذي أنعم عليّ؟ بوجودي وقوتي وطاقتي، من؟ ليس أحد من هؤلاء، هؤلاء كلهم يموتون، الإنس والجن يموتون وأنت حي قيوم يا رب العالمين.

نقل ابن القيم عن ابن أبي الدنيا:

"أن مُحَارِبُ بْنُ دِثَارٍ يقوم أحيانا في الليل يَقُولُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ: «أَنَا الصَّغِيرُ الَّذِي رَبَّيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنَا الضَّعِيفُ الَّذِي قَوَّيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنَا الْفَقِيرُ الَّذِي أَغْنَيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنَا الْغَرِيبُ الَّذِي وَصَّيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنَا الصُّعْلُوقُ الَّذِي مَوَّلْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنَا السَّاغِبُ الَّذِي أَشْبَعْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنَا الْعَارِي الَّذِي كَسَوْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنَا الْمُسَافِرُ الَّذِي صَاحَبْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنَا الْغَائِبُ الَّذِي أَدَّيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنَا الرَّاجِلُ الَّذِي حَمَلْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنَا الْمَرِيضُ الَّذِي شَفَيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنَا الدَّاعِي الَّذِي أَجَبْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ رَبَّنَا، وَلَكَ الْحَمْدُ رَبَّنَا حَمْدًا لَكَ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ» "

فتجريد الأمور وإعادتها لأصلها والتفكير فيما نثر الله لنا من آيات حولنا، وفي نفسنا، لا يمكن أن تُبقي للشك مكانًا؛ لذلك كان **من المهمات التربوية:** الاهتمام بالفطرة السوية،

المحافظة عليها، وعدم ترك الأبناء يُعبَث في فطرهم، في مدارس قام عليها أهل الباطل، أو في برامج أراد بها أهل الباطل نكاية أهل الحق ومنعهم من الخير.

مكر الليل والنهار مقصده: إفساد الفطرة التي هي الأداة الحقيقية لاستقبال الحق، وللنظر إلى الآيات البينات.

كل ما جاءت به الرسل تقبله الفطرة، التعريف برب العالمين وأوامره ونواهيه، إلا أن أهل الشهوات كان لهم رأي آخر: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) فوعد الله -عزَّ وجلَّ- أهل الإيمان أنه سيهلك الظالمين وأنه سيسكنهم الأرض من بعدهم (ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) وسماهم الله -عزَّ وجلَّ- جبارين عنيدين، جبار يحارب الحق بالقوة وليس بفهمه ومراجعته، عنيد لا يريد أن يصل إلى الحق، وعدهم الله يوم القيامة كيف أنهم سيكونون في العذاب الأليم، نعوذ بالله من العذاب!

نسأله -سبحانه وتعالى- العافية من الشك، والعافية من الضعف في الدين، يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، والحمد لله رب العالمين.